الإعلام الإسلامى فى مواجهة الاستشراق

أ.د محمود حمدى زقزوق
عميد كلية أصول الدين بالقاهرة

تمهيد :

التحديات التى تواجه الإسلام والمسلمين فى العصر الحاضر كثيرة ومتعددة فقد جندت كل القوى فى العالم الغربى شتى وسائل الإعلام الغربية التى تصل إلى كل مكان فى الدنيا لتشويه صورة الإسلام والمسلمين فى العالم. وبعد أن انهار الاتحاد السوفيتى وهو العدو التقليدى القديم للعالم الغربى يصرح المسئولون فى الغرب بأن العدو البديل المحتمل هو العالم الإسلامى ويتحدثون عن القنبلة الذرية الإسلامية التى تمثل تهديدا للعالم الحر، ولا يتحدثون عن القنبلة اليهودية فى إسرائيل أو الهندوسية فى الهند أو المسيحية فى الغرب أو الشيوعية فى الصين . والإسلام فقط من بين كل الديانات هو الذى يهاجم والمسلمون من بين كل شعوب الأرض هم العدوانيون الأرهابيون. كل ذلك يحدث والعالم الإسلامى غائب عن الإسهام بفاعلية فى بناء ما يسمى بالنظام العالمى الجديد، وغائب عن رسم مستقبل هذا العالم، ويراد له أن يظل على هامش الأحداث .

فإلى متى يرضى العالم الإسلامى لنفسه أن يظل فى مقاعد المتفرجين ؟

وإلى متى يظل مسلوب الإرادة يراد له ولا يريد لنفسه ؟

إن هذا الوضع المهين لا يجوز له أن يستمر. ولكن التغيير لن يسقط علينا من السماء. إنه يخضع لقانون قرآنى ثابت يتمثل فى قوله تعالى : ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ وإذا تم التغيير الداخلى من جانب الإنسان المسلم فإن الله سيشد من أزر المسلمين ويمدهم بعونه ويرعاهم بعنايته ويحقق لهم وعده" وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا " .

وهذا التمكين فى الأرض والأمن والاستقرار الذى وعد به القرآن يقتضى جهادا نفسيا وعملا متواصلا على كافة الجبهات بوعى وفاعلية حتى تتبدل الأحوال. وقبل ذلك هناك خطوة هامة على الطريق تتمثل فى التعرف على مواطن الضعف فى الكيان الإسلامى وتشخيص علل المجتمع الإسلامى تشخيصا دقيقا وممارسة النقد الذاتى ثم اقتراح الحلول الناجعة التى تقضى على المرض قضاء مبرما .

والإعلام الإسلامى يتحمل مسئولية ضخمة فى هذا المجال فعليه أن يوقظ الهمم ويشحذ العزائم ولا يكتفى بالضرب على أوتار العواطف وإلهاب المشاعر، بل ينبغى أن يخاطب العقول والأفهام وأن يسهم بفاعلية فى مكافحة السلبيات والتركيز على الأولويات والإرتفاع بوعى شباب الأمة وعدم الدخول فى جدل عقيم حول الهامشيات .

وليس من غرضنا اليوم أن نتحدث عن كل التحديات التى تواجه الأمة الإسلامية. ولكننا نختار تيارا واحدا فقط من بين التيارات العديدة التى تمثل تحديا للإسلام والأمة الإسلامية. وهو تيار الاستشراق وهذا التيار الفكرى يعد تيارا مؤثرا وفعالا ولا يجوز الاستهانة بأمره أو التقليل من شأنه . فالتخطيط الغربى يعتمد فى جانب كبير منه على الدراسات الاستشراقية. وسنحاول فى هذا البحث أن تلقى لمحة سريعة على قضية الاستشراق. وفى هذا الصدد سنقوم بإيجاز شديد بعرض المشكلة والاشارة إلى أبعادها المختلفة ونعرض أيضا الحلول المقترحة فى هذا المجال ومن نافلة القول أن نشير إلى أن دور الإعلام الإسلامى فى هذه القضية دور هام وحيوى. ويتمثل ذلك فى إلقاء الضوء على المشكلات والتحديات وتوعية الأذهان وتثقيف العقول وتحصين الشباب بالأفكار الأيجابية البناءة حتى لا يكون عرضة للوقوع فريسة للأفكار الهدامة وفيما يلى نعرض لقضية الاستشراق بايجابياتها وسلبياتها :

مدخـــل :

ليس هناك شك فى أن الاستشراق له أثر كبير فى العالم الغربى وفى العالم الإسلامى على السواء، وإن اختلفت ردود الأفعال على كلا الجانبين . ففى العالم الغربى لم يعد فى وسع أحد يريد أن يكتب عن الشرق أو يفكر فيه أو يمارس فعلا مرتبطا به أن يتجاهل الثروة العلمية الهائلة التى أنتجها الأستشراق على مدى قرون عديدة .

وفى العالم العربى الإسلامى المعاصر لا يكاد المرء يجد مجلة أو صحيفة أو كتابا الا وفيها ذكر أو اشارة إلى شيىء عن الاستشراق أو يمت إليه بصلة قريبة أو بعيدة .

وهذا أمر ليس بمستغرب، ذلك أن الاستشراق كان ولا يزال له أكبر الأثر فى صياغة التصورات الغربية عن الأسلام وفى تشكيل مواقف الغرب إزاء الإسلام على مدى قرون عديدة .

والاستشراق قضية تتناقض حولها الآراء فى العالم العربى الإسلامى، فهناك من يؤيده ويتحمس له إلى أبعد الحدود، وهناك من يرفضه جملة وتفصيلا .

وكمثال قريب لهذا الفريق الأخير أذكر أننى ألقيت محاضرة بعنوان (الإسلام والاستشراق) منذ بضعة أعوام فى احدى الدول العربية، وقد جاء فى حديثى ثناء على ما بذله المستشرقون من جهود لحفظ المخطوطات العربية التى جلبت إلى أوروبا، وتسهيل الاستفادة منها وفهرستها فهرسة دقيقة، وذكرت أن ذلك يعد من الجوانب الإيجابية التى تذكر للمستشرقين .

ولكن محاضرا آخر ألقى بعد ذلك ببضعة أشهر فى نفس المكان محاضرة عن التراث العربى الإسلامى، وفى حديثه عن المخطوطات العربية التى جلبت إلى أوروبا ذكر أنه كان يتمنى أن تحرق جميع هذه المخطوطات ولا تقع فى أيدى المستشرقين لأنهم قد استخدموها ضد العرب والمسلمين .

والواقع أن كلا من هذين الاتجاهين : المتحمس للأستشراق بلا حدود، والرافض له بلا حدود غير منصف فيما ذهب إليه . فكل منهما يمثل تيارا غير علمى وغير نقدي .

فالاستشراق من ناحية غير معصوم من الخطأ، كما أنه من ناحية أخرى ليس كله شرا بالنسبة للإسلام والمسلمين .

فالاتجاه الأول مبهور بالحضارة الغربية والتقدم العلمى والتكنولوچى فى الغرب وبالتالى فإن كل ما يأتى من الغرب لابد أن يكون – من وجهة نظر هذا الاتجاه – سليما وعلميا وموضوعيا .

أما الاتجاه الثانى فهو اتجاه رافض للحضارة الغربية وإن كان يأخذ بأسباب التقدم العلمى. ورفضه للاستشراق مبنى على أسباب عديدة، من بينها الظروف التى أدت إلى نشاة الاستشراق وارتباط أهدافه فى مراحل معينه بالتبشير، وموافقة العدائية ضد الإسلام منذ العصر الوسيط، وكذلك ظروف الصدامات العسكرية التى حدثت بين الغرب والشرق الإسلامى على مدى قرون عديدة، وأخيرا فى العصر الحديث ما كان من ظروف الاستعمار الغربى للبلاد الإسلامية واذلاله لشعوبها وتحقيره لدينها وحضارتها، وما صحب ذلك من نظرة الاستعلاء الغربية فى علاقة الغرب بتلك الشعوب المغلوبة على أمرها. وقد لعب بعض المستشرفين أدوارا هامة ساعدت الاستعمار الغربى، وساعدت على ترسيخ نظرة الاستعلاء الغربية إزاء الإسلام والمسلمين . وقد سخروا معلوماتهم عن الإسلام وتاريخه فى سبيل مكافحة الإسلام والمسلمين . وهذا واقع مؤلم يعترف به المستشرفون المخلصون لرسالتهم بكل صراحة .

وهكذا يستطيع المرء أن يفهم الأسباب التى أدت إلى وجود تيار قوى فى العالم العربى الإسلامى يرفض الاستشراق رفضا تاما .

والواقع الذى لا يمكن انكاره هو أن الاستشراق له تأثيراته القوية فى الفكر الإسلامى الحديث ايجابا أو سلبا أردنا أو لم نرد . ولهذا فأننا لا نستطيع أن نتجاهله أو نكتفى بمجرد رفضه وكأننا بذلك قد قمنا بحل المشكلة. إننا لوفعلنا ذلك لكنا كالنعامة التى تدفن رأسها فى الرمال .

ولهذا فانه ليس هناك بديل عن مواجهة المشكلة وطرحها على بساط البحث ودراستها واستخلاص النتائج وطرح الحلول .

ومن هنا تأتى ضرورة المواجهة العلمية الجادة للاستشراق، تلك المواجهة التى لا تكتفى بنعم أو لا، بل تسلك سبيل الدراسة المتعمقة والبحث الدءوب فى جذور الفكر الغربى لمعرفة الأسباب الحقيقية للمواقف الغربية من الإسلام. فالصورة السائدة عن الإسلام اليوم فى الغرب

ليست مجرد صورة وقتية عارضة ولا هى بنت اليوم، وإنما هى صورة صاغتها قرون طويلة من الصراع الحضارى بين الإسلام والغرب .

واذا كنا لم نحاول أن ندرس التراث الغربى ونحلله وننقده كما فعل الغربيون بتراثنا فلا أقل من أن ندرس ما كتبوه عنا حتى نعرف الأسباب التى من أجلها كانت حملتهم الظالمة علينا وعلى ديننا ومقدساتنا .

ومن هنا تتضح حاجتنا الماسة إلى دراسة كل ما يكتب عنا وعن ديننا في الغرب لأن هذه الكتابات تمس أقدس ما لدينا : تمسنا فى أخص خصائصنا وهو عقيدتنا التى نعتز بها وتمس شخص نبينا ﷺ وتمس القرآن الكريم والسنة النبوية. وبصفة عامة تمس تاريخنا كله .

وحيث أن كلا من الاتجاهين المشار اليهما وهما : الاتجاه المتحمس للاستشراق بلا حدود والاتجاه الرافض له على طول الخط، غير منصف فيما ذهب إليه، فانه كان لابد من ظهور تيار ثالث يحاول أن يكون لنفسه رؤية موضوعية عن الاستشراق وأهدافه وأعماله ومنشوراته العلمية ويحاول جاهدا أن ينقد ما يراه سلبيا من وجهة النظر الإسلامية، ولا ينسى فى الوقت نفسه أن يذكر الأيجابيات التى تذكر للاستشراق فى المجالات العلمية المتعلقة بالدراسات العربية والإسلامية .

وهذا الاتجاه الثالث هو فى حقيقة الأمر الأتجاه الذى يمكن أن نسميه اتجاها إسلاميا حقيقيا، لأنه هو الذى يتفق مع ما يطلبه الإسلام فى مثل هذه الأحوال انطلاقا من قول القرآن الكريم ﴿ ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى ﴾ .

وهذا الاتجاه وحده هو الذى يمكن أن يجبر المستشرفين على احترام وجهة النظر الإسلامية. وحتى اذا لم يستطع أن يغير من أفكار المستشرفين فى المستقبل القريب فعلى الأقل سيشعرهم بأن هناك اتجاها علميا حقيقيا على المستوى الإسلامى، وأن من الخطأ البالغ تجاهله أو المرور عليه مر الكرام – ومن ناحية أخرى سيتيح لنا هذا الاتجاه العلمى القويم أن نقتحم بفكرنا الأبواب المغلقة فى الفكر الغربى .

والمواقف الاستشرافية تشتمل من غير شك على بعض الجوانب الإيجابية التى يجب أن تذكر للمستشرفين، كما تتمثل فى المواقف الاستشرافية طائفة أخرى من الجوانب السلبية التى يجب أن تسجل عليهم. وحتى نكون موضوعيين فأنه لأبد لنا من الإشارة إلى مالهم من إيجابيات والتنبيه على ما لديهم من سلبيات حتى تتضح الأبعاد المختلفة للمشكلة. ولا ضير على المرء اذا اعترف بما لعدوه من مزايا، اذ أن ذلك ربما يكون حافزا لنا على النهوض والاستعداد من جديد، وقبول التحدى الذى تفرضه علينا – نحن المسلمين – ظروف العصر .

أما هذه الأيجابيات التى سنذكر طرفا منها هنا فأود أن أنبه إلى أن بعضها يعد أمورا تخص المستشرقين وتتصل بأسلوب عملهم ومدى ترابطهم، والقصد من ذكرها هو مجرد الاعتبار بها فقط، وبعضها الآخر أمور تتصل بانتاجهم العلمى الذى يعود بعضه بالفائدة على الدارسين العرب، وأن كان المستشرقون قد قصدوا به فى المقام الأول خدمة أنفسهم، ولكنهم مع ذلك لم يحجبوه عن غيرهم. وسنحاول فيما يلى أن نلقى أولا نظرة تاريخية على نشأة الاستشراق وتطوره ثم بعد ذلك نلقى نظرة على المواقف الاستشراقية بما لها وما عليها ثم نتحدث بعد ذلك عما يمكن للمسلمين أن يقوموا به من خطوات فى مواجهة الحركة الاستشراقية .

نشأة الاستشراق وتطوره :

البدايات الأولى :

الاستشراق هو علم الشرق أو علم العالم الشرقى. وكلمة " مستشرق" بالمعنى العام تطلق على كل عالم غربى يشتغل بدراسة الشرق كله : أقصاه ووسطه وأدناه، فى لغاته وآدابه وحضارته وأديانه. ولكننا هنا لا نقصد هذا المفهوم الواسع، ولا يعنينا هنا أن نتعرض لبحثه، كما لا يعنينا أيضا أن نتعرض للتغيرات الجغرافية والحضارية التى طرأت على مفهوم الشرق فى مختلف العصور، وانما كل ما يعنينا هنا هو المعنى الخاص لمفهوم الاستشراق الذى يعنى الدراسات الغربية المتعلقة بالشرق الإسلامى فى لغاته وآدابه وتاريخه وعقائده وتشريعاته وحضارته بوجه عام . وهذا المعنى هو الذى ينصرف إليه الذهن فى عالمنا العربى الإسلامى عندما يطلق لفظ استشراق ومستشرق، وهو الشائع أيضا فى كتابات المستشرقين المعنيين . ومن الصعب تحديد تاريخ معين لبداية الاستشراق وإن كان بعض الباحثين يشير إلى أن الغرب النصرانى يؤرخ لبدء وجود " الاستشراق الرسمى " بصدور قرار مجمع "فيينا " الكنسى عام ١٣١٢م بإنشاء عدد من كراسى اللغة العربية فى عدد من الجامعات الأوروبية. ولكن الإشارة هنا إلى "الاستشراق الرسمى " تدل على أنه كان هناك استشراق غير رسمى قبل هذا التاريخ، فضلا عن أن هناك باحثين أوربيين – كما سنذكر فيما يلى – لا يعتمدون التاريخ المشار إليه بداية للاستشراق . ولذلك تتجه المحاولات فى هذا الصدد لا إلى تحديد سنة معينة لبداية الاستشراق، وانما إلى تحديد فترة زمنية معينة على وجه التقريب يمكن أن تعد بداية للاستشراق.

وليس هناك شك فى أن الانتشار السريع للإسلام فى المشرق والمغرب قد لفت بقوة أنظار رجالات اللاهوت النصرانى إلى هذا الدين. ومن هنا بدأ اهتمامهم بالإسلام ودراسته. ومن بين العلماء النصارى الذين أظهروا فى وقت مبكر اهتماما بدراسة الإسلام – لا من أجل اعتناقه،

وانما من أجل حماية اخوانهم النصارى منه - كان العالم النصرانى يوحنا الدمشقى (٦٧٦ - ٧٤٩م). ومن بين مصنفاته فى هذا الصدد لاخوانه فى الدين كتاب (محاورة مع مسلم) وكتاب (ارشادات النصارى فى جدل المسلمين) .

ولكننا لا نستطيع أن نعد مثل هذه المحاولات بداية للاستشراق فيوحنا الدمشقى كان رجلا شرقيا عاش فى ظل الدولة الأموية وخدم فى القصر الأموى. ولهذا سنصرف النظر عن مثل هذه المحاولات من جانب النصارى الشرقيين، ونقصر حديثنا على العلماء الغربيين .

وهنا نجد أيضا أنه ليس هناك اتفاق على فترة زمنية معينة لبداية الاستشراق. فبعض الباحثين يذهب إلى القول بأن البدايات الأولى للاستشراق ترجع إلى مطلع القرن الحادى عشر الميلادى بينما يرى (رودى بارت Rudi Paret) أن بدايات الدراسات الإسلامية والعربية فى أوروبا تعود إلى القرن الثانى عشرالذى تمت فيه لأول مرة ترجمة معانى القرآن الكريم إلى اللغة اللاتينية، كما ظهر أيضا فى القرن نفسه أول قاموس لاتينى عربى . وما ذهب إليه بارت فى هذا الصدد سبق أن عبر عنه كتاب المستشرق جوستاف دوجا (تاريخ المستشرقين فى أوروبا من القرن الثانى عشر حتى القرن التاسع عشر) الذى صدر فى باريس فى نهاية الستينات من القرن الماضى .

وهناك من الباحثين من يجعل بداية الاستشراق قبل ذلك بقرنين، أى فى القرن العاشر الميلادى. ولعل هذا هو السبب الذى أدى بنجيب العقيقى إلى أن يجعل كتابه عن المستشرقين - فى أجزائه الثلاثة - سجلا للاستشراق على مدى ألف عام، بدء من الراهب الفرنسى جربردى أورالياك (٩٣٨ -١٠٠٣) الذى قصد الأندلس، وتتلمذ على أساتذتها فى أشبيلية وقرطبة حتى أصبح أوسع علماء عصره فى أوروبا ثقافة بالعربية والرياضيات والفلك، ثم تقلد فيما بعد منصب البابوية فى روما باسم سلفستر الثانى (٩٩٩ - ١٠٠٣) .

وعلى أية حال فان الدافع لهذه البدايات المبكرة للاستشراق كان يتمثل فى ذلك الصراع الذى دار بين العالمين الإسلامى والنصرانى فى الأندلس وصقلية، كما دفعت الحروب الصليبية بصفة خاصة إلى اشتغال الأوربيين بتعاليم الإسلام وعاداته. ولهذا يمكن القول بأن تاريخ الاستشراق فى مراحله الأولى هو تاريخ للصراع بين العالم النصرانى فى القرون الوسطى والشرق الإسلامى على الصعيدين الدينى والأيديولوجى. فقد كان الإسلام كما يقول (سانذرن Southern) يمثل مشكلة بعيدة المدى بالنسبة للعالم النصرانى فى أوروبا على المستويات كافة. فباعتباره مشكلة عملية استدعى الأمر اتخاذ اجراءات معينة كالصليبية والدعوة إلى

النصرانية والتبادل التجارى، وباعتباره مشكلة لا هوتية تطلب بالحاح العديد من الاجابات على العديد من الأسئلة فى هذا الصدد، وذلك يقتضى معرفة الحقائق التى لم يكن من السهل معرفتها. وهنا ظهرت مشكلة تاريخية صار من المتعذر حلها، كما ندر امكانية تناولها دون معرفة أدبية ولغوية يصعب اكتسابها، وصارت المشكلة أكثر تعقيدا بسبب السرية والتعصب والرغبة القوية فى عدم معرفتها خشية الدنس .

اتجاهان مختلفان :

وقد نشط اللاهوتيون النصارى فى ذلك الوقت المبكر ضد الإسلام وراحوا ينشرون الافتراءات والأكاذيب حول الإسلام ونبيه ﷺ ، وزعموا فيما زعموا أن الإسلام قوة خبيثة شريرة وأن محمد ﷺ ليس إلا صنما أو اله قبيلة أو شيطانا . وغزت الأساطير الشعبية والخرافات خيال الكتاب اللاتينيين. ولم يكن الهدف بطبيعة الحال هو عرض صورة موضوعية عن الإسلام، فقد كان هذا أبعد ما يكون عن أذهان المؤلفين فى ذلك الزمان .

وهناك فى هذا الصدد حكايات فى وصف الإسلام مغرقة فى الخيال وفى الضلال اخترعها الكتاب فى ذلك العصر مثل أنشودة رولاند الشهيرة : The Song of Roland وغيرها من أثار أدبية تصف المسلمين بأنهم عباد أصنام، أو أنهم يعبدون آلهة ثلاثة هى (تيرفاجان Tervagan)، و(محمد وأبو للو) . وقد اعترف أعلم المؤلفين المسؤولين عن هذا الأدب وهو(جيبير النوجنتى Guibert de Nogent ت ١٢٢٤م) بأنه لا يعتمد فى كتاباته عن الإسلام على أية مصادر مكتوبة، وأشار فقط إلى آراء العامة، وأنه لا يوجد لديه أية وسيلة للتمييز بين الخطأ والصواب، ثم قال مبررا كتاباته غير العلمية عن الإسلام ونبيه :

" لاجناح على المرء اذا ذكر بالسوء من يفوق خبثه كل سوء يمكن أن يتصوره المرء " وقد أطلق ساذرن على هذه الفترة فى كتابه (نظرة الغرب إلى الإسلام فى القرون الوسطى) عنوان "عصر الجهالة " . وهو عصر كان أبعد ما يكون عن روح العلم والموضوعية. وفى ذلك يقول ساذرن : " على أن الشىء الوحيد الذى يجب أن لا نتوقع وجوده فى تلك العصور هو الروح المتحررة الأكاديمية، أو البحث الانسانى الذى تميز به الكثير من البحوث التى تناولت الإسلام فى المائة سنة الأخيرة " ..

وفى مقابل تلك الصورة البعيضة للإسلام كانت هناك جهود أخرى للوصول إلى معرفة موضوعية فى مجال العلوم العربية مثل الفلسفة والطب والعلوم الطبيعية .

وبدءا من عام ١١٣٠م كان العلماء النصارى فى أوروبا يعملون جاهدين على ترجمة الكتب العربية فى الفلسفة والعلوم. وكان لرئيس أساقفة طليطلة وغيره الفضل فى اخراج ترجمات مبكرة لبعض الكتب العلمية العربية، بعد الاقتناع بأن العرب يملكون مفاتيح قدر عظيم من

تراث العالم الكلاسيكى. وهذه الحركة التى قامت فى أوروبا لترجمة العلوم العربية إلى اللاتينية تشبه تلك الحركة التى قامت فى العالم الإسلامى فى عهد المأمون ومن سبقه لترجمة العلوم اليونانية وغيرها إلى العربية. وتخدم أيضا الأغراض نفسها التى قامت من أجلها حركة الترجمة فى العالم الإسلامى والتى تتمثل فى نشر العلم ورفع المستوى الثقافى من أجل خدمة الحياة الانسانية وبناء الحضارة. ولكن هذا الاتصال العلمى العميق بحضارة الإسلام لم يكن له تأثير فى تغيير النظره الغربية للصورة العقيدية أو الألهية أو التاريخية للإسلام .

وقد كانت هناك فى القرن الثانى عشر أيضا بعض المحاولات للتعرف على الإسلام بقدر من الموضوعية ولكن مع الهدف الواضح والمعلن وهو محاربة هذه التعاليم الإسلامية الالحادية. ومن أجل ذلك قام بطرس الموقر (ت ١١٥٦م) رئيس رهبانى كلونى بتشكيل جماعة من المترجمين فى أسبانيا يعملون كفريق واحد من أجل الحصول على معرفة علمية موضوعية عن الدين الإسلامى. وقد كان بطرس الموقر وراء ظهور أول ترجمة لمعانى القرآن الكريم إلى اللغة اللاتينية فى عام ١١٤٣م، تلك الترجمة التى قام بها العالم الانجليزى (روبرت أوف Robert of Ketton ويمكن القول بصفة عامة بأنه قد كان هناك فى هذه الفترة المبكرة للاستشراق اتجاهان مختلفان فيما يتعلق بالأهداف والمواقف إزاء الإسلام . أما الاتجاه الأول فقد كان اتجاها لاهوتيا متطرفا فى جدله العقيم، ناظرا إلى الإسلام من خلال ضباب كثيف من الخرافات والأساطير الشعبية. أما الاتجاه الثانى فقد كان نسبيا بالمقارنة إلى الاتجاه الأول أقرب إلى الموضوعية والعلمية، ونظر إلى الإسلام بوصفه مهد العلوم الطبيعية والطب والفلسفة، ولكن الاتجاه الخرافى ظل حيا حتى القرن السابع عشر وما بعده. ولا يزال هذا الاتجاه للأسف حيا فى العصر الحاضر فى كتابات بعض المستشرقين عن الإسلام ونبيه .

الثقافة العربية فى قصر الأمبراطور :

وبين حين وآخر كانت تظهر هناك بعض شخصيات أوربية مستنيرة لها وزنها تتخذ ازاء الإسلام بعض المواقف الايجابية، ومن بين هؤلاء القلائل الذين كانوا يتبنون ازاء الإسلام موقفا أقرب إلى الاعتدال نجد فريدريك الثانى حاكم صقلية الذى أصبح إمبرطورا لألمانيا عام ١٢١٥م. وقد كان فريدريك هذا يعرف العربية ويتشبه بالعرب فى لباسهم وعاداتهم ويتحمس للفلسفة والعلوم العربية. وقد كانت هذه العلوم تدرس بشغف فى قصره فى (بالرمو) وبذلك أصبحت فى متناول اللاتينيين. وقد أهدى هذا الإمبرطور وابنه (مانفرد) إلى جامعات بولونيا وباريس ترجمات لكتب فلسفية مترجمة عن العربية. وفى عام ١٢٢٤م أسس الإمبرطور جامعة نابولى وجعل منها أكاديمية لإدخال العلوم العربية إلى العالم الغربى .

وقد كان نصيب هذا الإمبراطور أن طرده البابا جريجورى التاسع Gregorgy من الكنيسة عام ١٢٣٩م. وقد كانت احدى التهم التى وجهت إليه هى ما يبديه من مظاهر الود تجاه الإسلام .

الاستشراق والتنصير :

اذا كان الاستشراق لا يقوم إلا على أساس معرفة اللغات الشرقية التى هى الوسيلة للتعرف على عقائد وحضارات الشرق فإن التنصير يتفق مع الاستشراق فى هذا الصدد، ويحتم أيضا معرفة لغات من يراد تنصيرهم، وقد كان هناك اقتناع تام لدى دعاة التنصير فى القرن الثالث عشر بضرورة تعلم لغات المسلمين، اذا أريد لمحاولات تنصير المسلمين أن تؤتى ثمارها بنجاح. وقد كان هذا الاقتناع – الذى ترجم فيما بعد إلى خطة عمل – عاملا هاما بالنسبة لتطور الاستشراق. ولم يكن من السهل فى ذلك الزمان فصل الاستشراق عن التنصير أو عن الدافع الدينى بصفة عامة. فالدافع الدينى كان هو السبب الأول فى نشأة الاستشراق .

وقد كان من بين الدعاة المتحمسين الذين طالبوا بضرورة تعلم لغات المسلمين لغرض التنصير (روجر بيكون) (١٢١٤م – ١٢٩٤ م) الذى كان يرى أن التنصير هو الطريقة الوحيدة التى يمكن بها توسيع رقعة العالم المسيحى. ولبلوغ هذا الغرض لابد من توفر شروط ثلاثة هى :

١ – معرفة اللغات الضرورية .

٢ – دراسة أنواع الكفر وتمييز بعضها من بعضها الآخر .

٣ – دراسة الحجج المضادة حتى يمكن دحضها .

وقد شارك بيكون فى أفكاره (رايموندلول Raymond luli) (١٢٣٥ – ١٣١٦) الذى ولد فى جزيرة ميورقة الأسبانية وتعلم العربية على يد عبد عربى، وكانت له جهود كبيرة فى إنشاء كراسى لتدريس اللغة العربية فى أماكن مختلفة، وكان الهدف من كل هذه الجهود فى ذلك العصر وفى العصور التالية هو التنصير، وهو اقناع المسلمين بلغتهم ببطلان الإسلام واجتذابهم إلى الدين النصرانى .

وقد صادق مجمع " فيينا " الكنسى فى عام ١٣١٢م على أفكار بيكون ولول بشأن تعلم اللغات الإسلامية، وتمت الموافقة على تعليم اللغة العربية فى خمس جامعات أوروبية هى جامعات باريس، وإكسفورد، وبولونيا، وسلمنكا، بالإضافة إلى جامعة المدينة البابوية (kurie) وقدر لرايموندلول أن يعيش حتى يشهد تحقيق حلم طالما نادى به، وكان يعتقد أن الوقت بذلك قد حان لاخضاع المسلمين عن طريق التنصير وبذلك تزول العقبة الكبيرة التى تقف فى سبيل تحويل الانسانية كلها إلى العقيدة الكاثوليكية .

وقد ساعد على تقدم الدراسات الاستشراقية فى نهاية العصر الوسيط تلك الصلات السياسية والدبلوماسية مع الدولة العثمانية التى اتسعت رقعتها حينذاك. وكان للروابط الاقتصادية لكل من أسبانيا وايطاليا مع كل من تركيا وسورية ومصر أثر كبير فى دفع حركة الدراسات الاستشراقية.

وفى القرن السادس عشر الميلادى وما بعده أدت النزعة الانسانية فى عصر النهضة الأوربية إلى دراسات أكثر موضوعية من ذى قبل، ومن ناحية أخرى شجعت البابوية الرومانية دراسات لغات الشرق من أجل مصلحة التنصير .

وفى القرن السابع عشر بدأ المستشرقون فى جمع المخطوطات الإسلامية، وأنشئت كراسى للغة العربية فى أماكن مختلفة. ومما هو جدير بالذكر أن قرار إنشاء كرسى اللغة العربية فى جامعة كمبردج عام ١٦٣٦م قد نص صراحة على خدمة هدفين أحدهما تجارى والآخر تنصيرى .

ومن هنا يتضح أنه قد كان هناك تجاوب متبادل بين الاستشراق والتنصير إن لم يكن هناك تماثل فى القصد بين المستشرق الأكاديمى والمبشر الإنجيلى. ويمكن القول بأن التحالف بين الجانبين لا يزال مستمرا بشكل من الأشكال حتى العصر الحاضر .

محاولات جادة نحو فهم الإسلام :

وعلى الرغم من هذه الأهداف التنصيرية الواضحة والمعادية فى طبيعتها للإسلام، فقد شهدت نهاية القرن السابع عشر من ناحية أخرى اتجاها آخر مختلفا استمر أيضا فى القرن الثامن عشر، وقد نظر هذا الاتجاه إلى الإسلام نظرة موضوعية محايدة فيها شىء من التعاطف مع الإسلام، وقد شجع على ذلك ظهور النزعة العقلية الجديدة التى بدأت تسود أوروبا حينذاك والتى كانت فى عمومها مخالفة للكنيسة .

وهكذا سنحت الفرصة أمام بعض العقلاء من الأوروبيين للوقوف فى وجه الظلم والاجحاف الذى لقيه الإسلام فى الغرب فى القرون الوسطى، وظهرت بعض المؤلفات العامة المعتدلة عن الإسلام والحضارة الإسلامية، وحل محل الآراء التى تبناها اللاهوتيون حتى ذلك الوقت والتى تمثلت فى وصف محمد ﷺ بأنه شيطان، وفى وصف القرآن الكريم بأنه مزيج من اللغو الباطل – حل محلها آراء أخرى أقل عنفا وأقرب إلى الاعتدال والانصاف للإسلام والمسلمين .

وأهم محاولة رائدة فى الاتجاه الجديد نحو الفهم الصحيح للإسلام كانت على يد (هادريان ريلاند Reland) (ت ١٧١٨م) أستاذ اللغات الشرقية فى جامعة أوترشت بهولندا. فقد صدر كتابه باللغة اللاتينية عن الإسلام عام ١٧٠٥م بعنوان (الديانة المحمدية) فى جزأين :

عرض فى أولهما العقيدة الإسلامية معتمدا على مصادر بالعربية واللاتينية. وفى الجزء الثانى قام بتصحيح الآراء الغربية التى كانت سائدة حينذاك عن تعاليم الإسلام. وقد أثار الكتاب اهتماما عظيما لدرجة أدت إلى أثارة الشبهات حول المؤلف باتهامه بأنه يريد القيام بعمل دعائى للإسلام، فى حين أنه لم يكن يقصد إلا الوصول إلى فهم الدين الإسلامى فهما صحيحا ممهدا بذلك السبيل إلى محاربته من جانب النصرانية بطريقة أفضل من ذى قبل .

ولكن الكنيسة الكاثوليكية أدرجت الكتاب فى قائمة الكتب المحرم تداولها . وعلى الرغم من ذلك ترجم الكتاب إلى اللغات الإنجليزية والفرنسية والألمانية والهولندية والأسبانية. ويشير ريلاند فى مقدمة الكتاب إلى ما تتعرض له كل الأديان باستمرار من جانب خصومها، أما بعدم فهمها أو برميها بكل سوء بطريقة تنبئ عن قصد خبيث. وقد تعرض الإسلام إلى مثل ذلك من جانب خصومه مثلما تعرضت الأديان الأخرى. ويقول ريلاند : (إن المرء يصح له أن يبحث عن الحقيقة حينما كانت) .. ولهذا يريد أن يعرض الإسلام لا كما يظهر من خلال ضباب الجهل وخبث الناس، وإنما كما يدرس حقيقة فى مساجد المسلمين ومدارسهم. فلم يحدث أن تعرض دين من الأديان فى هذا العالم فى أى عصر من العصور إلى مثل ما تعرض له الإسلام من جانب خصومه من الاحتقار والتشويه والوصف بكل أوصاف السوء. وقد وصل الأمر إلى حد أن من يريد أن يصف نظرية من النظريات بوصف مشين، يصفها بأنها نظرية محمدية .. كما لو كان الأمر أنه لا يوجد فى تعاليم محمد شىء صحيح، وأن كل ما فيها فاسد. وإذا أبدى أحد رغبة صادقة فى التعرف على الإسلام لا تقدم إليه إلا الكتب المضادة الخبيثة والمليئة بالضلالات .

ولكن محاولة ريلاند وغيرها من محاولات فى التعرف على الإسلام عن قرب وبلا أحكام سابقة لم تستطع أن ترسخ في الفكر الأوروبى تيارا عاما، ولم تستطع بالتالى أن تقضى تماما على الصورة المشوهة للإسلام فى أذهان الاوروبيين بصفة عامة، تلك الصورة التى رسختها القرون الوسطى فى الأذهان والتى لا تزال آثارها عالقة بالعقول حتى اليوم. فقد بقيت الصورة فى اطارها العام على مر العصور كما هى، وان حدث فيها بين الحين والحين – بفعل بعض الظروف بعض التعديل فى الظلال والألوان " والرتوش " الخفيفة. والدليل على ذلك هو أن صورة الإسلام فى أذهان الأوروبيين لا تزال حتى اليوم صورة مشوهة بعيدة عن الحقيقة .

ولسنا ننكر أن الاستشراق فى ذلك العصر بدأ يتخفف من أثقال اللاهوت وأن حدة الاتهامات ضد الإسلام قد خفت عن ذى قبل. كما أعيد النظر فى الاتهامات السابقة، ولكن هذا الانفتاح الفكرى كان فى محصلته النهائية محدود الأثر .

ويعد القرن التاسع عشر والقرن العشرون عصر الازدهار الحقيقى للحركة الاستشراقية .

وفى نهاية القرن التاسع عشر أصبحت الدراسات الإسلامية تخصصا قائما بذاته داخل الحركة الاستشراقية العامة. وكان كثير من علماء الإسلاميات والعربية فى ذلك الوقت – مثل : نولد كه وجولد تسيهر، وفلهاوزن – مشهورين فى الوقت نفسه بوصفهم علماء فى الساميات على وجه العموم أو متخصصين فى الدراسات العبرية أو فى دراسة الكتاب المقدس .

من مظاهر النشاط الاستشراقى :

بدأ المستشرقون فى النصف الأول من القرن التاسع عشر فى مختلف بلدان أوربا وأمريكا بانشاء جمعيات لمتابعة الدراسات الاستشراقية فقد تأسست أولا الجمعية الآسيوية فى باريس عام ١٨٢٢م ثم الجمعية الملكية الآسيوية فى بريطانيا وايرلندا عام ١٨٢٣م، والجمعية الشرقية الأمريكية عام ١٨٤٢م والجمعية الشرقية الألمانية عام ١٨٤٥م.

وسرعان ما نشطت هذه الجمعيات فى اصدار المجلات والمطبوعات المختلفة. وقد كان (هامر برجشتال) أول من أصدار مجلة استشراقية متخصصة فى أوروبا وهى مجلة (ينابيع الشرق) التى صدرت فى فيينا من عام ١٨٠٩م إلى عام ١٨١٨م.

وفى عام ١٨٩٥م ظهرت فى باريس مجلة تهتم بصفة خاصة بالعالم الإسلامى وهى مجلة الإسلام، وقد خلفتها فى عام ١٩٠٦م مجلة العالم الإسلامى التى صدرت عن البعثة العلمية الفرنسية فى المغرب، وقد تحولت بعد ذلك إلى مجلة الدراسات الإسلامية .

وفى عام ١٩١٠م ظهرت مجلة الإسلام الألمانية Der Islam ، وفى بطرسبرج بـ "روسيا " ظهرت مجلة عالم الإسلام Mir Islama عام١٩١٢م ولكنها لم تعمر إلا وقتا قصيرا. وفى بريطانيا ظهرت مجلة العالم الإسلامى عام ١٩١١م على يد صمويل زويمر (ت ١٩٥٢) الذى كان رئيس المبشرين فى الشرق الأوسط .

وللمستشرفين اليوم من المجلات والدوريات عدد هائل يزيد على ثلاثمائة مجلة ودورية متنوعة بمختلف اللغات .

وقد شهد القرن التاسع عشر أيضا بداية المؤتمرات الدولية للمستشرقين. وقد اتاحت هذه المؤتمرات للمستشرقين فى كل مكان الفرصة لزيادة التنسيق وتوثيق أواصر التعاون، والتعرف بصورة مباشرة على أعمال بعضهم بعضا، وتجنب ازدواج العمل حرصا على تجميع الجهود وعدم تبديدها فى أعمال مكررة .

وقد تم عقد أول مؤتمر دولى للمستشرقين فى باريس فى عام ١٨٧٣م، وتعقد هذه المؤتمرات منذ ذلك الحين بصفة منتظمة. وقد بلغ عددها حتى الآن أكثر من ثلاثين مؤتمرا. وهذا عدا المؤتمرات والندوات واللقاءات الاقليمية التى يرجع بعضها إلى تاريخ أقدم من تاريخ

أول المؤتمرات الدولية. فقد عقد أول مؤتمر للمستشرقين الألمان فى مدينة درسدن بألمانيا فى عام ١٨٤٩م. ولا تزال مثل هذه المؤتمرات تعقد بانتظام حتى اليوم .

وتضم هذه المؤتمرات الدولية للمستشرقين مئات العلماء فمثلا مؤتمر اكسفورد كان يضم تسعمائة عالم من خمس وعشرين دولة، وخمس وثمانين جامعة، وتسع وستين جمعية علمية، ومجموعات العمل فى كل مؤتمر تبلغ أربع عشرة مجموعة تختص كل منها ببحث مجال معين من الدراسات الاستشراقية. وتنشر بحوث هذه المؤتمرات فى مجلدات " للاهتداء بها كنظم ومناهج ووسائل، ثم أصبحت – مع دراسات مؤتمراتهم الموضوعية والاقليمية – أصولا وأمهات وأسانيد للباحثين " .

الاستشراق ..... والاستعمار ....

لقد كان للمد الاستعمارى فى العالم الإسلامى دور كبير فى تحديد طبيعة النظرة الأوروبية إلى الشرق وخصوصا بعد منتصف القرن التاسع عشر وقد أفاد الاستعمار من التراث الاستشراقى ومن ناحية أخرى كان للسيطرة الغربية على الشرق دورها فى تعزيز موقف الاستشراق، وتواكبت مرحلة التقدم الضخم فى مؤسسات الاستشراق وفى مضمونه مع مرحلة التوسع الأوروبى فى الشرق .

وقد شهد القرن التاسع عشر استيلاء المستعمرين الغربيين على مناطق شاسعة من العالم الإسلامى .

ففى عام ١٨٥٧م تم استيلاء الإنجليز سياسيا على الهند، وأصبحت الهند بذلك تابعة للتاج البريطانى رسميا، بعد أن كانت حتى ذلك الحين واقعة تحت نفوذ شركة الهند الشرقية منذ القرن السابع عشر. وفى عام ١٨٥٧ أيضا تم استيلاء فرنسا على الجزائر كلها بعد أن كان الفرنسيون قد بدؤوا غزوها عام ١٨٣٠م. كما احتلت هولندا قبل ذلك – فى بداية القرن السابع عشر – جزر الهند الشرقية (اندونسيا) عن طريق شركة الهند الهولندية.. وبعد عام١٨٨١م تم احتلال مصر وتونس. وظل الاستعمار يقوم بتقطيع أوصال البلاد الإسلامية شيئا فشيئاويضعها تحت سيادته حتى استطاع فى النهاية أن يطوق العالم الإسلامى من الشرق والغرب وبعد الحرب العالمية الأولى كان العالم الأسلامى كله تقريبا خاضعا لنفوذ الاستعمار الغربى .

وقد استطاع الاستعمار أن يجند طائفة من المستشرقين لخدمة أغراضه وتحقيق أهدافه وتمكين سلطانه فى بلاد المسلمين. وهكذا نشأت هناك رابطة رسمية وثيقة بين الاستشراق والاستعمار وانساق فى هذا التيار عدد من المستشرقين ارتضوا لأنفسهم أن يكون علمهم وسيلة لإذلال المسلمين وإضعاف شأن الإسلام وقيمه – وهذا عمل يشعر ازاءه المستشرقون المتصفون

بالخجل والمرارة .

ولم تكن علاقة الاستشراق بالاستعمار – كما يظن – هى مجرد اضفاء طابع التبرير العقلى على المبدأ الاستعمارى، بل كان الأمر كما يقوله ادوارد سعيد أيضا – أبعد من ذلك وأعمق، فالتبرير الاستشراقى للسيادة الاستعمارية قد تم قبل حدوث السيطرة الاستعمارية على الشرق، وليس بعد حدوثها . فقد كان التراث الاستشراقى بمثابة دليل للاستعمار فى شعاب الشرق وأوديته من أجل فرض السيطرة على الشرق واخضاع شعوبه وإذلالها .

" فالمعرفة بالأجناس المحكومة أو الشرقيين هى التى تجعل حكمهم سهلا ومجديا . فالمعرفة تمنح القوة، ومزيد من القوة يتطلب مزيدا من المعرفة " فهناك باستمرار حركة جدلية بين المعلومات والسيطرة المتنامية.

وهكذا اتجه الاستشراق المتعاون مع الاستعمار – بعد الاستيلاء العسكرى والسياسى على بلاد المسلمين – إلى إضعاف المقاومة الروحية والمعنوية فى نفوس المسلمين وتشكيك المسلمين فى معتقداتهم وتراثهم، حتى يتم للاستعمار فى النهاية اخضاع المسلمين اخضاعا تاما للحضارة والثقافة الغربية .

اليهود .. والاستشراق ..

لقد اتضح لنا مما تقدم أنه قد كانت هناك أسباب معينة على مر العصور دفعت بالباحثين الغربيين النصارى إلى الاستشراق، وحملتهم على تحقيق أهداف علمية أو غير علمية. وهنا يمكن لسائل أن يسأل :

ماهى الأسباب التى دفعت اليهود إلى الاقبال على الاستشراق .. وما الدور الذى قاموا به فى إطار الحركة الاستشراقية ؟

والإجابة على هذا السؤال ليست سهلة، فمن الصعب الحصول على إجابة صريحة فى هذا الصدد، وذلك لأن المراجع التى تتحدث عن الاستشراق وتطوره قد أغفلت الحديث عن هذا الجانب. ونعتقد أن سبب اغفال الحديث عن هذا الموضوع يرجع إلى أن المستشرقين اليهود قداستطاعوا أن يكيفوا أنفسهم ليصبحوا عنصرا أساسيا فى اطار الحركة الاستشراقية الأوروبية النصرانية. فقد دخلوا الميدان بوصفهم الأوروبى لا بوصفهم اليهودى. وقد استطاع (جولد تسيهر) فى عصره – وهو يهودى مجرى – أن يصبح زعيم علماء الإسلاميات فى أوروبا بلا منازع، ولا تزال كتبه حتى اليوم تحظى بالتقدير العظيم والاحترام الفائق من كل فئات المستشرقين .

وهكذا لم يرد اليهود أن يعملوا داخل الحركة الاستشراقية بوصفهم مستشرقين يهودا حتى

لا يعزلوا أنفسهم وبالتالى يقل تأثيرهم . ولهذا عملوا بوصفهم مستشرقين أوربيين، وبذلك كسبوا مرتين : كسبوا أولا فرض أنفسهم على الحركة الاستشراقية كلها، وكسبوا ثانيا تحقيق أهدافهم فى النيل من الإسلام، وهى أهداف تلتقى مع أهداف غالبية المستشرقين النصارى.

مستقبل الاستشراق :

وفى ختام هذا المدخل التاريخى تبرز أمامنا بعض الأسئلة الملحة حول مستقبل الاستشراق : هل لا يزال الاستشراق يعيش الآن عصر ازدهاره، أم أن نجمه بدأ يأفل وتأثيره بدأ يقل ونشاطه بدأ يتضاءل .. وخاصة بعد أن انحسر المد الاستعمارى عن العالم الإسلامى ؟

أين يقف الاستشراق الآن فى العصر الحاضر ؟

ما موقف الحكومات الأوروبية اليوم من دعم النشاط الاستشراقى ؟

إن طرح هذه الأسئلة له ما يبرره. فهناك بالفعل وجهات نظر تتحدث عن نهاية الاستشراق

لقد عاش الاستشراق عصرازدهاره فى النصف الثانى من القرن الماضى والنصف الأول من هذا القرن .. وشهدت تلك الفترة جيل العمالقة من المستشرقين. وقد ظهرت الآن أجيال جديدة تسير على الدرب نفسه وتترسم خطى السابقين.

وتهتم الحكومات الأوربية بدعم الحركة الاستشراقية فى أوروبا ، ولا تبخل عليها بالمال اللازم لاستمرار نشاطها .

فهناك إذن ارتباط وثيق بين مصالح الغرب واهتماماته ودعم الحركة الاستشراقية. وهذا أمر يجعل استمرار الاستشراق متوقفا على استمرار الدعم المالى الذى تقدمه الحكومات والهيئات المختلفة، واستمرار الدعم المالى يتوقف على مدى تشبث الغرب بمصالحه فى العالم العربى والإسلامى، والتشبث بهذه المصالح حقيقة واقعة تؤكدها جميع الشواهد. وليس هناك أى بارقة تلوح فى الأفق توحى بأن الغرب على استعداد للتخلى عن هذه المصالح. ومادام الأمر كذلك فان الحاجة إلى الاستشراق فى الغرب ستظل قائمة بل ستزداد إلحاحا.

الجوانب الإيجابية :

وتتمثل الجوانب الايجابية للمستشرقين فى الأمور التالية :

يخدم المستشرقون أهدافهم التى وضعوها لأنفسهم بإخلاص تام لهذه الأهداف وتفان إلى أقصى حد وبكل الوسائل. وعندما أراد المستشرق الهولندى سنوك هورجرونيه أن يكتب كتابا عن مكة لم يثنه عن عزمه لدراسة مكة على الطبيعة أنه مسيحى لا يجوز له أن يدخل مكة، فانتحل اسما إسلاميا هو عبد الغفار، وزار مكة عام ١٨٨٤ وأقام هناك مدة خمسة أشهر، وكان يجيد

العربية كأحد أبنائها. وبعد هذه الرحلة كتب عن مكة كتابين أولهما : الحج إلى مكة، وثانيهما : مكة وجغرافيتها فى القرن التاسع عشر – فى جزءين – وصف فيه مكه وصفا دقيقا شاملا مع خرائط عديدة. والمستشرقون بصفة عامة لديهم صبر عجيب ونادر فى البحث والدرس وإحاطة تامة بالعديد من اللغات القديمة والحديثة. وقد أشار الشيخ مصطفى عبد الرازق إلى "الأعجاب بصبرهم ونشاطهم وسعة اطلاعهم وحسن طريقتهم " .

وقال الشيخ أمين الخولى بعد حضوره مؤتمر المستشرقين الدولى الخامس والعشرين " لقد قدمت السيدة كراتشكوفسكى بحثا عن نوادر مخطوطات القرآن فى القرن السادس عشر الميلادى. وأنى أشك فى أن الكثيرين من أئمة المسلمين يعرفون شيئا عن هذه المخطوطات . وأظن أن هذه مسألة لا يمكن التساهل فى تقديرها " .

(٢) : هناك ترابط تام بين جماعات المستشرقين فى مختلف البلدان الغربية وتنسيق مستمر وتعاون وتكامل فى مجالات الدراسات العربية والإسلامية. فقنوات الاتصال بينهم قائمة ومستمرة عن طريق المؤتمرات المنتظمة والدوريات والحوليات والمجلات والنشرات والمطبوعات المختلفة.

[٣) : التوفر على موضوع معين من الدراسات العربية والإسلامية وقضاء العمر كله فى البحث والاستقصاء لاستيفاء شتى جوانبه. ولهذا نجد أن لديهم معرفة جيدة بكل ما ينشر عن الدراسات الإسلامية والعربية فى بلادنا العربية. ومكتباتهم الخاصة والعامة عامرة بشتى المراجع العربية والإسلامية قديمها وحديثها . وهناك حقيقة يعرفها كل من خالط المستشرقين وهى أن المستشرق المتمكن لا تأخذه العزة بالأثم اذا ما نبهته إلى خطأ وقع فيه نتيجة لعدم فهمه لروح اللغة العربية .

(٤) : دائرة المعارف الإسلامية – على مالنا نحن المسلمين عليها من مأخذ – وتعد هذه الدائرة ثمرة من ثمار التعاون العلمى الدولى بين المستشرقين. وقد تم اصدراها فى طبعتها الأولى بالانجليزية والفرنسية والألمانية فى الفترة من عام ١٩١٣ إلى عام ١٩٣٨م وقد ترجمت إلى العربية حتى حرف العين. وقدر شرع المستشرقون فى إصدار طبعة جديدة أعيدت فيها كتابة المقالات بناء على ما صدر من بحوث حديثة وما نشر أو اكتشف من مخطوطات. وقد بدأ ظهور الطبعة الجديدة منذ عام ١٩٥٤ وقد صدر منها الآن خمسة مجلدات كبيرة ولا يزال العمل جاريا فى إعداد بقية المجلدات .

(٥) : تاريخ الأدب العربى لبروكلمان (ت١٩٥٦) وهو كتاب أساسى فى الدراسات العربية لايستغنى عنه باحث فى الدراسات العربية والإسلامية. وهذا الكتاب لا يقتصر على الأدب

العربى وفقه اللغة، بل يشمل كل ما كتب باللغة العربية من المدونات الإسلامية. فهو سجل للمصنفات العربية المخطوط منها ، والمطبوع، ويكتمل بمعلومات عن حياة المؤلفين. وقد صدر أولا فى مجلدين عام ١٨٩٨ وعام ١٩٠٢ ثم أتبعه المؤلف بثلاث مجلدات تكميلية كبيرة فى الفترة من ١٩٣٧ إلى ١٩٤٢ ثم أعاد نشر المجلدين الأساسيين فى عام ١٩٤٣ وعام ١٩٤٩ فى طبعة أخرى معدلة ليتناسب تعديلهما مع المجلدات الثلاثة التكميلية. وقد وافق المؤلف على طلب الجامعة العربية على ترجمة الكتاب إلى اللغة العربية. ولكن المشروع لازال للأسف يتعثر حتى الآن. ويقوم الباحث التركى المسلم فؤاد سيزكين، تلميذالمستشرق الألمانى هلموت ريتر – بعد اكتشاف آلاف المخطوطات – يقوم باكمال عمل بروكلمان وذلك فى كتابه (التراث العربى) بالألمانية الذى ترجم بعضه إلى العربية، ومنح عليه جائزة الملك فيصل منذ بضع سنوات.والحق يقال انه لولا كتاب بروكلمان لما كان كتاب فؤاد سيزكين.

(٦) : جمع المخطوطات العربية من كل مكان وبشتى السبل، والعمل على حفظها وصيانتها من التلف والعناية بها عناية فائقة، وفهرستها فهرسة نافعة تصف المخطوط وصفا دقيقا وبذلك وضعت تحت تصرف الباحثين الراغبين فى الاطلاع عليها فى مقر وجودها أو طلب تصويرها بلا روتين أو اجراءات معقدة. وقد قام مثلا ألوارد Ahlward بوضع فهرس للمخطوطات العربية فى مكتبة برلين فى عشرة مجلدات بلغ فيه الغاية فنا ودقة وشمولا، وصدر هذا الفهرس فى نهاية القرن الماضى واشتمل على فهرس لنحو عشرة آلاف مخطوط . وقد قام المستشرقون فى كافة الجامعات والمكتبات الأوروبية بفهرسة المخطوطات العربية فهرسة دقيقة. وتقدر المخطوطات العربية الإسلامية فى مكتبات أوروبا بعشرات الآلاف بل قد يصل عددها إلى مئات الآلاف .

وهنا أيضا كلمة حق يجب أن تقال وهى أن انتقال هذا العدد الهائل من المخطوطات إلى أوروبا بوسائل شرعية أو غير شرعية قد هيأ لها أحدث وسائل الحفظ والعناية الفائقة والفهرسة الدقيقة. وعندما أقول هذا أشعر بالأسى والحسرة لحال المخطوطات النادرة فى كثير من بلادنا العربية والإسلامية وما آل إليه حال الكثير منها من التلف والتآكل وصعوبة أو استحالة الاستفادة منها .

(٧) : للمستشرقين باع طويل فى مجال المعاجم. وأخص بالذكر هنا المعجم المفهرس لألفاظ الحديث الشريف. الذى يشمل كتب الحديث الستة المشهورة بالاضافة إلى مسند الدارمى وموطأ مالك ومسند الأمام أحمد بن حنبل. وقد تم نشره فى سبعة مجلدات فى الفترة من عام ١٩٣٦ حتى عام ١٩٦١م. وتفيد منه كافة المعاهد والجامعات الإسلامية فى العالم .

وقد تعاون على اخراجه عدد من المستشرقين المعروفين . ونشير أيضا إلى الجهد الذى بذله أوجست فيشر (ت١٩٤٩) فى معجم اللغة العربية القديمة مرتبا حسب المصادر. فقد قضى فيشر أربعين عاما فى جمعه وتنسيقه وتعاون معه عدد من المستشرقين.

(٨) : قام المستشرقون بنشر الكثير من أمهات كتب التراث، وقد عرفنا الكثير من هذا التراث محققا ومطبوعاعلى أيديهم. ولم يقتصر الأمر على نشر النصوص العربية بل قاموا أيضا بترجمة مئات الكتب العربية الإسلامية إلى كافة اللغات الأوروبية.

الجوانب السلبية :

وبعد هذه النظرة التى ألقيناها على ماللمستشرقين من ايجابيات يحق لنا الآن أن ننبه إلى الجوانب السلبية فى تفكيرهم ودراساتهم. وتنصب النواحى السلبية بصفة أساسية على دراساتهم عن الإسلام وما يتصل به . وفيما يلى نعرض نماذج من هذه السلبيات :

١ – يعد الاستشراق أسلوبا خاصا فى التفكير ينبنى على تفرقة أساسية بين الشرق والغرب.

فالشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا) كما قال الشاعر الاستعمارى المشهور كبلنجKipling فالغربيون عقليون محبون للسلام متحررون منطقيون وقادرون على اكتساب قيم حقيقية، أما الشرقيون فليس لهم من ذلك كله شىء .

ولكن هناك حقيقة هامة يتجاهلها المستشرقون ببساطة، وهى أن الحضارة الغربية التى يصفونها باعتزاز بأنها حضارة مسيحية مبنية فى الأصل على تعاليم رجل شرقى وهو المسيح عليه السلام، وعلى ما نقلوه عن العرب من علوم عربية ومن تراث قديم تطور على أيدى العرب. وهذه الحقيقة تجعل هذه التفرقة المبدئية إلى شرق وغرب والتى يعتمد عليها الاستشراق أمرا مخالفا للمنطق. فالمسيحية دين شرقى. والزعم بأن الغرب متقدم لأنه يدين بالمسيحية والشرق متخلف لأنه يدين بالإسلام، زعم لا أساس له من العلم ولا من الواقع، فالتقدم الذى يشهده الغرب اليوم فى مجال العلم والتكنولوجيا لا علاقة له بالمسيحية كدين، والتخلف الذى يعانى منه الشرق لا يتحمل الإسلام وزره. فهذا التخلف يعد – كما يقول المرحوم مالك بن نبى – عقوبة مستحقة من الإسلام على المسلمين لتخليهم عنه لا لتمسكهم به كما يزعم الزاعمون .

٢ – الاستشراق – من بين شتى العلوم الأخرى – لم يطور كثيرا فى أساليبه ومناهجه. وفى دراسته للإسلام لم يتخلص قط من الخلفية الدينية للجدل اللاهوتى العقيم الذى انبثق منه الاستشراق أساسا. ولم يتغير شىء من هذا الوضع حتى اليوم باستثناء بعض الشواذ . وتخدم اليوم وسائل الإعلام المتعددة فى الغرب فى تأكيد وتقوية الوضع التقليدى الذى

لايزال ينظر إلى الإسلام إلى حد كبير بمنظار القرون الوسطى. ولعل هذا هو ما دعا السكرتير العام للمجلس الإسلامى الأوربى فى شهر يناير ١٩٧٩ إلى التنديد بوسائل الإعلام الغربية لموقفها من الإسلام، ووصفه لهذا الموقف بالأجحاف والافتراء على حقائق الدين وتشويهها. وهذا كله يحدث على الرغم من أن مجلس الفاتيكان قد أشاد فى اكتوبر ١٩٦٥ بالحقائق التى جاء بها الإسلام والتى تتعلق بالله وقدرته ويسوع ومريم والأنبياء والمرسلين، وعلى الرغم أيضا من قول المستشرق الألمانى المعاصر رودى بارت : أن الدراسات الاستشراقية منذ منتصف القرن التاسع عشر تنحو نحو البحث عن الحقيقة الخالصة ولا تسعى إلى نوايا جانبية غير صافية .

وللمستشرق الفرنسى المعاصر رودنسون وجهة نظر أخرى حيث يذهب إلى القول بأن هناك ثورة فى التفكير قد حدثت فى التصورات الاوروبية للإسلام، الأمر الذى جعل التقييم المسيحى لمحمد ﷺ مسألة حساسة. فلم يعد بإمكانهم الزعم الكاذب بأنه (محتال شيطانى) كما كان عليه الحال فى العصور الوسطى . وفى الوقت الذى نجد فيه بعض المفكرين المسيحيين الذين يهتمون بالمشكلة يعلقون الحكم بحذر، فأننا نجد بعض الكاثوليك المتخصصين فى الإسلام يعتبرون محمدا ﷺ (عبقريا دينيا)،. و يتساءل آخرون عما إذا كان فى الإمكان اعتباره بطريقة ما نبيا حقيقيا ما دام القديس توماس الأكوينى يقول بالنبوة التوجيهية التى لا تعنى بالضرورة العصمة والكمال. ومعنى هذا الكلام هو عدم الاعتراف بالنبوة الحقيقية للنبى ﷺ التى تعنى اصطفاء الهيا ووحيا سماويا وعصمة ربانية.

والواقع انه ليس بالأمر الغريب أن يختلف المستشرقون معنا – نحن المسلمين – فى الرأى حول الإسلام، وأنما الغريب أن يتفقوا معنا فى الرأى. وذلك لأن منطلق تفكيرهم بالنسبة للإسلام ونبيه يختلف عن المنطلق الذى يصدر عنه تفكير المسلمين ولهذا تختلف وجهات النظر بيننا وبينهم وستظل مختلفة فلا ننتظر منهم أن يتبنوا وجهة نظرنا التى تنظر إلى الإسلام على أنه دين سماوى ختم به الله الرسالات السماوية وأن محمدا خاتم النبيين، وأن القرآن وحى الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، لأنهم لو فعلوا ذلك لأصبحوا مسلمين . وهذا ما حدث فعلا بالنسبة للبعض منهم ممن تحول إلى الإسلام.

وهذا التحول إلى الإسلام يعنى فى الوقت نفسه التحول عن الخط الاستشراقى. ونحن لا نطلب من كل مستشرق أن يغير معتقده ويعتقد ما نعتقد عندما يكتب عن الإسلام. ولكن هناك أوليات بديهية يتطلبها المنهج العلمى السليم. فعندما أرفض وجهة نظر معينة لأبد أن أبين للقارىء أولا وجهة النظر هذه من خلال فهم أصحابها لها، ثم لى بعد ذلك أن أخالفها. وعلى هذا

الأساس نقول : أن الكيان الإسلامى كله يقوم على أساس الإيمان بالله ورسوله محمد ﷺ الذى تلقى القرآن وحيا من عند الله. ويجب على العالم النزيه والمؤرخ المحايد أن يقول ذلك لقرائه عندما يتعرض للحديث عن الأسلام حتى يستطيع القارىء أن يفهم سر قوة هذا الأيمان فى تاريخ المسلمين، ثم له بعد ذلك أن يخالف المسلمين فى معتقدهم وتصوراتهم. أما أن يعرض المستشرق الإسلام بادىء ذى بدء من خلال تصورات سابقة مبنية على خيالات وأوهام فهذا مالا يقره علم ولا خلق. وهذا ما يجعلنا نقول – مع الدكتور حسين مؤنس – : أن محمدا الذى يصوره المستشرقون ليس هو محمد الذى نؤمن برسالته، وانما هو شخص آخر من صنع خيالهم، والإسلام الذى يعرضونه فى كتبهم ليس هو الإسلام الذى ندين به ، وانما هو إسلام من اختراعهم .

وهكذا يمكن القول بأن الاستشراق – فى دراسته للإسلام – ليس علما بأى مقياس علمى، وإنما هو عبارة عن أيدلوچية خاصة يراد من خلالها ترويج تصورات معينة عن الإسلام بصرف النظر عما اذا كانت هذه التصورات قائمة على حقائق أو مرتكزة على أوهام وافتراءات. وهذا يذكرنا بما كان يفعله السوفسطائيون قديما فاذا وصفنا المستشرقين فى دراستهم للإسلام – الا بعض الشواذ منهم – اذا وصفناهم بأنهم السوفسطائيون الجدد فنحن بذلك لم نتجن عليهم على الاطلاق .

ولكن الانصاف يقتضينا أيضا أن نقول : أن الدراسات الاستشراقية كلما كانت بعيدة عن مجالات العقيدة الإسلامية كلما كانت أقرب إلى الموضوعية وأبعد عن التحامل .

٣ – يعمد المستشرقون إلى تطبيق المقاييس المسيحية على الدين الإسلامى وعلى نبيه فالمسيح – فى نظر المسيحيين – هو أساس العقيدة، ولهذا تنسب المسيحية إليه . وقد طبق المستشرقون ذلك على الإسلام واعتبروا أن محمدا يعنى بالنسبة للمسلمين مايعنيه المسيح بالنسبة للمسيحية، ولهذا أطلقوا على الإسلام – اسم المذهب المحمدى Mohammedanism ولكن هناك سببا آخر لاستخدام هذا الوصف لدى الكثيرين منهم وهو إعطاء الانطباع بأن الإسلام دين بشرى من صنع محمد وليس من عند الله . أما نسبة المسيحية إلى المسيح فلا تعطى هذا الانطباع لديهم لاعتقادهم بأن المسيح ابن الله . وتتم مقارنة أخرى بين محمد والمسيح يكون المسيح فيها هو المقياس : فمحمد مزواج وشهوانى فى مقابل المسيح العفيف الذى لم يتزوج، ومحمد محارب وسياسى أما يسوع فهو مسالم مغلوب على أمره ومعذب يدعو إلى محبة الأعداء .وهكذا .

٤ – الخلط بين الإسلام كدين وتعاليم ثابتة فى القرآن الكريم والسنة الصحيحة وبين الوضع المتردى للعالم الإسلامى فى عالم اليوم . فإسلام الكتاب والسنة يعد فى نظر مستشرق معاصر مثل كيسلنج اسلاما ميتا . أما الإسلام الحى الذى يجب الاهتمام به ودراسته فهو ذلك الإسلام المنتشر بين فرق الدراويش فى مختلف الأقطار الإسلامية، هو تلك الممارسات السائدة فى حياة المسامين اليوم بصرف النظر عن اقترابها أو ابتعادها من الإسلام الأول.

٥ – التأكيد على أهمية الفرق المنشقة عن الإسلام كالبابية والبهائية والقاديانية والبكداشية وغيرها من فرق قديمة وحديثة، وتعميق الخلاف بين السنة والشيعة .ودائما يعتبرون المنشقين أصحاب فكر ثورى تحررى عقلى، ودائما يهتمون بكل غريب وشاذ، ودائما يقيسون مايرونه فى العالم الإسلامى على مالديهم من قوالب مصبوبة جامدة . وقد أشار المستشرق رودنسون إلى ذلك حين قال : (ولم ير المستشرقون فى الشرق الا ماكانوا يريدون رؤيته، فاهتموا كثيرا بالأشياء الصغيرة والغريبة، ولم يكونوا يريدون أن يتطور الشرق ليبلغ المرحلة التى بلغتها أوربا، ومن ثم كانوا يكرهون النهضة فيه) .

٦ – يفتقد المرء الموضوعية فى كتابات معظم المستشرقين عن الدين الإسلامى فى حين أنهم عندما يكتبون عن ديانات وضعية مثل البوذية والهندوكية وغيرها يكونون موضوعيين فى عرضهم لها . فالإسلام فقط من بين كل الديانات التى ظهرت فى الشرق والغرب هو الذى يهاجم . والمسلمون فقط من بين الشرقيين جميعا هم الذين يوصفون بشتى الأوصاف الدنيئة . ويتساءل المرء : لماذا ؟

ولعل تفسير ذلك يعود إلى أن الإسلام كان يمثل بالنسبة لأوروبا صدمة مستمرة. فقد كان الخوف من الإسلام هو القاعدة. وحتى نهاية القرن السابع عشر كان " الخطر العثمانى "رابضاً عند حدود أوروبا ويمثل – فى اعتقادهم – تهديدا مستمرا بالنسبة للمدنية المسيحية كلها ولهذا يمكن القول – كما يقول ادوارد سعيد – بأن الاستشراق من الناحية النفسية يعد صورة من صور جنون الاضطهاد. فالإسلام إذن حتى فى عصر ضعف أتباعه لا يزال يمثل تحديا على كافة المستويات. فهل يعى المسلمون هذه الحقيقة ؟

ومن هنا يمكن فهم ما يقوله موير Muir : "إ ن سيف محمد والقرآن هما أكثر الأعداء الذين عرفهم العالم حتى الآن عنادا ضد الحضارة والحرية " الحقيقية "، وما يزعمه فون جرونيباوم من أن الإسلام ظاهرة فريدة لا مثيل لها فى أي دين آخر أو حضارة أخرى. فهو دين غير انسانى وغير قادر على التطور والمعرفة الموضوعية . و هو دين غير خلاق وغير علمى واستبدادى .

وهكذا يتضح الحقد الدفين على الإسلام باستمرار بمثل هذه الافتراءات التى ليس لها فى سوق العلم نصيب .

٧ - يعطى الاستشراق لنفسه فى دراسته للإسلام دور ممثل الاتهام والقاضى .فبينما نجد مثلا أن علم التاريخ يحاول أن يفهم فقط ولا يضع موضع الشك أسس المجتمع الذى يدرسه، نجد الاستشراق يعطى لنفسه حق الحكم بل وحق الاتهام والرفض للأسس الإسلامية التى يقوم عليها المجتمع الإسلامى، وذلك ناتج عن نوايا مسبقة لا يمكن بحال من الأحوال أن تكون نوايا علمية صافية كما يدعى المستشرق رودى بارت .

٨ - تحالف فريق من المستشرقين مع الاستعمار الذى أذل العالم الإسلامى حقبة من الزمان فى العصر الحديث . ويقول المستشرق المعاصر اشتيفان فيلد بصدد الإشارة إلى تلك الفئة من المستشرقين : والأقبح من ذلك أنه توجد جماعة يسمون أنفسهم مستشرقين، سخروا معلوماتهم عن الإسلام وتاريخه فى سبيل مكافحة الإسلام والمسلمين. وهذا واقع مؤلم لأبد أن يعترف به المستشرقون المخلصون لرسالتهم بكل صراحة " .

ومن بين الأمثلة العديدة فى هذا الصدد نذكر المستشرق كارل هيزيش بيكر (ت ١٩٣٣) مؤسس مجلة الإسلام الألمانية. فقد قام بدراسات تخدم الأهداف الاستعمارية الألمانية فى أفريقيا . أما بارتولد Barthold (ت١٩٣٠) مؤسس مجلة Mir Islama الروسية فقد تم تكليفه عن طريق الحكومة الروسية بالقيام ببحوث تخدم مصالح السيادة الروسية فى آسيا الوسطى. أما عالم الإسلاميات الهولندى الشهير سنوك هورجرونيه (ت ١٩٣٦) فقد لعب دورا هاما فى تشكيل السياسة الثقافية والاستعمارية فى المناطق الهولندية فى الهند الشرقية، وشغل مناصب قيادية فى السلطة الاستعمارية الهولندية فى اندونيسيا، أما المستشرق الفرنسى المعروف ماسنيون فقد كان مستشارا لوزارة المستعمرات الفرنسية فى شئون شمال افريقيا . وغير هؤلاء كثيرون وضعوا أنفسهم وعلمهم ودراساتهم فى خدمة الاستعمار ضد الإسلام والمسلمين .

٩ - الدعوة إلى إصلاح الإسلام : يزعم المستشرقون أن الإسلام دين جامد، وأنه لم يعد مسايرا لروح العصر، ولذلك فهو فى حاجة إلى إصلاح جذرى. وفى ذلك يقول أحد المستشرقين (إن على الإسلام إما أن يعتمد تغييرا جذريا فيه أو أن يتخلى عن مسايرة الحياة). وهذه دعوة يوجهها إلى المسلمين غريب عنهم بشأن ما ينبغى عليهم أن يفعلوه فى دينهم. وهذا الأصلاح المزعوم يمثل محاولة من محاولات تغيير وجهة نظر المسلم عن الإسلام، وجعل الإسلام أقرب إلى المسيحية بقدر الإمكان .

ولعله من نافلة القول أن نشير هنا إلى أن الإسلام يشتمل على أصول لا يملك أحد أن يغير فيها شيئا وهى عقائد الإسلام الأساسية، ويشتمل على فروع وهى قابلة للتغيير حسب المصلحة الإسلامية، وأن الإصلاح الذى نفهمه نحن المسلمين هو اصلاح للفكر الإسلامى الذى هو فى حاجة إلى المراجعة المستمرة حتى يتلاءم مع متطلبات العصر وحاجات الأمة فى اطار من التعاليم الإسلامية .

ولكن الدعوة إلى اصلاح الإسلام أو تحديثه كما يقال أحيانا ليست بهذا المفهوم، وإنما هى عبارة عن تفريغ الإسلام من مضمونه وعزله كلية عن تنظيم أمور المجتمع، وجعله مجرد تعاليم خلقية شأنه فى ذلك شأن الديانة المسيحية .

ويتورط البعض من أبناء المسلمين فى حمل لواء الدعوة إلى اصلاح الإسلام، كما يفهمها المستشرقون. ومن أحدث الكتب فى هذا الشأن كتاب صدر فى ألمانيا العربية منذ أكثر من عشرة أعوام بعنوان أزمة الإسلام الحديث – لمؤلف عربى مسلم يعمل أستاذا فى جامعة فرانكفورت بألمانيا، يدعو فيه بحماس إلى الأخذ بالنموذج الغربى فى الاصلاح المتمثل فى جعل الدين مجرد تعاليم خلقية لا تكاليف الزامية. فذلك فى نظره هو الحل الوحيد لأزمة الإسلام. وبذلك يتم ابعاد الدين كلية عن التدخل فى شئون الحياة حسب النموذج العلمانى الغربى.

وهكذا نوفر نحن أبناء المسلمين على المستشرقين بذل الجهد فى هذا السبيل ونتولى نحن الدعوة إلى تحقيق الأهداف التى عاشوا قرونا طويلة يعملون من أجلها دون جدوى .

٤ – موقفنا من الاستشراق : –

والآن – وبعد أن اتضحت لنا بعض الشىء أبعاد المواقف الاستشراقية بخيرها وشرها – لابد لنا من الحديث عن موقفنا – نحن المسلمين – من الاستشراق – وهذا يستدعينا أن نتذكر ماكان يفعله أسلافنا فى مثل هذه المواقف .

لقد كانت التيارات الفكرية الأجنبية القديمة – التى كانت تمثل تحديا للإسلام والفكر الإسلامى الأصيل فى عصور الإسلام الزاهرة – كانت حافزا للمسلمين فى تلك الأيام الخوالى للوقوف أمامها بقوة وصلابة. وقد كانت المواجهة على مستوى التحدى بل تفوقه. فقد هضم الفكر الإسلامى تلك التيارات هضما دقيقا واستوعبها استيعابا تاما ثم كانت له معها وقفته الصلبة وبنفس الأسلحة الفكرية. فالمواجهة إذن كانت مواجهة فكرية. وكأن التاريخ الآن يعيد نفسه فالحرب الآن بين الإسلام والتيارات المناوئة له حرب أفكار، والمعركة معركة فكرية، ولهذه المعركة أدواتها التى يجب التسلح بها، فالخسران فى هذه المعركة أشد وطأة وأقوى تأثيرا وأعظم فتكا من خسارة أى معركة حربية أيا كان حجمها. لننظر مثلا نموذجا رائدا فى تاريخ الفكر الإسلامى

... إنه حجة الإسلام الغزالى الذى خاض غمار معارك فكرية عديدة وخرج منها جميعا منتصرا، فماذا كان يفعل . يقول الغزالى فى كتابه (المنقذ من الضلال) : " إنه لا يقف على فساد نوع من العلوم من لايقف على منتهى ذلك العلم حتى يساوى أعلمهم من أهل ذلك العلم، ثم يزيد عليه ويجاوز درجته فيطلع على ما لم يطلع عليه صاحب العلم .... وإذ ذلك يمكن أن يكون ما يدعيه من فساده حقا" .

وقياسا على ما يقوله الإمام الغزالى نجد أن استعاب الانتاج الاستشراقى حول الإسلام ودراسته دراسة عميقة هو الخطوة الأولى لنقده نقدا صحيحا وإثبات ما يتضمنه من تهافت أو زيف، الأمر الذى يجعل المستشرقين يفكرون ألف مرة قبل أن يكتبوا تحسبا لما قد يواجههم من نقد علمى يعريهم ويثبت زيف ادعاءاتهم. ويؤكد هذه الحقيقة المستشرق الفرنسى مكسيم رودنسون حين يشير إلى أن هناك طريقا واحدا فقط لنقد المستشرقين. وهذا الطريق يسير عبر دراسة تفصيلية لمؤلفاتهم، ويجب أن يرتبط نقدنا لإنتاج المستشرقين بنقد ذاتى حقيقى بصفة مستمرة، يجب أن نواجه أنفسنا مواجهة حقيقية بعيوبنا وقصورنا وتقصيرنا، وأن نكون على وعى حقيقى بالمشكلات التى تواجهنا فى هذا العالم المعاصر.

وقد يتمثل الجانب الإيجابى للاستشراق فى صورة الهجوم علينا وعلى أمجادنا وليس فى صورة المدح، وكلنا يعلم أن هناك عددا لا بأس به من المستشرقين قد مدحوا حضارتنا فى مؤلفاتهم وأثنوا على علمائنا ومجدوا تراثنا، وآخرهم المستشرقة الألمانيّة المعاصرة زيجريد هونكه فى كتابها (شمس الله تسطع على الغرب) وفى كتابها الأخير " الله مختلف تماما " عما يتصوره الغرب . ولكن جانب المدح والثناء قد يكون له تأثير تخديرى علينا، فيجعلنا نغمض عيوننا مستسلمين لتلك الأحلام السعيدة التى تذكرنا بالعز الذى كان ، ونركن إلى ذلك ونعيش على صيت آبائنا وأجدادنا، ونظن أننا عظماء لأن اجدادنا كانوا عظماء ورحم الله جمال الدين الأفغانى الذى كان يقول : –

" إن المسلمين أصبحوا كلما قال لهم الانسان : كونوا بنى آدم، أجابوه ان آباءنا كانوا كذا وكذا وعاشوا فى خيال ما فعل آباؤهم غير مفكرين بأن ما كان عليه آباؤهم من الرفعة لا ينفى ما هم عليه من الخمول والضعة. إن الشرقيين كلما أرادوا الاعتذار عما هم فيه من الخمول الحاضر قالوا : أفلا ترون كيف كان آباؤنا ؟ نعم قد كان آباؤكم رجالا. ولكنكم انتم أولاء كما كنتم، فلا يليق يليق بكم ان تتذكروا مفاخر آبائكم إلا أن تفعلوا فعلهم " .

ومن هنا نقول إن الجانب الهجومى التفنيدى الاستفزازى فى إنتاج المستشرقين قد يكون بالنسبة لنا خيرا من جانب المدح تأكيدا للمثل المعروف (رب ضارة نافعة)، فقد يكون هذا الاستفزاز حافزا لنا لنخرج من حالة الركود الفكرى التى وصلنا إليها لننطلق من جديد، فننهض

نبنى أفكارنا من جديد ونعيد ترتيب صرح ثقافتنا، وبذلك نقبل التحدى ونستجيب له فننهض من كبوتنا، ولعل هذا ينطبق على تفسير توينبى للحضارة بأنها استجابة للتحدى بمعنى أنها رد معين يواجه به شعب من الشعوب تحديا معينا.

وهذا الرد ليس مجرد استنفاذ الطاقات فى رد الهجوم وترقب الطعنات للرد عليها، وانما هو الرد الفعال الذى ينتقل إلى الموقف الأقوى. فلا يجوز أن نقف دائما موقف المعتدى عليه. فالمعتدى عليه، غالبا ما يكون ضعيفا، ولهذا لابد من أن نغير وضعنا، وذلك لن يكون إلا بتغيير أفكارنا، فنحن لسنا متخلفين لقلة أشيائنا، ولكن تخلفنا لقلة أفكارنا وتبدد جهودنا، ولن تتغير أحوالنا إلا بتغيير ما فى نفوسنا ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾.

ولابد لنا من أن نعترف بأن الاستشراق يستمد قوته من ضعفنا، ووجوده نفسه مشروط بعجز العالم الإسلامى عن معرفة ذاته. فالاستشراق فى حد ذاته كان دليل وصاية فكرية. ويوم أن يعى العالم الإسلامى ذاته وينهض من عجزه ويلقى من على كاهله أثقال التخلف الفكرى والحضارى – يومها سيجد الاستشراق نفسه فى أزمة، وخاصة الاستشراق المشتغل بالإسلام، ويومها لن يجد الجمهور الذى يخاطبه لا فى أوروبا ولا فى العالم الإسلامى. ولكى نكون أكثر وضوحا وأكثر تحديدا فى تصوير ما ينبغى علينا أن نقوم به لمواجهة الاستشراق نذكر فيما يلى بعض النقاط التى نعتقد أنها أمور أساسية فى هذا المجال : –

١ – علينا أن ننظر إلى حركة الاستشراق بكل جدية، ونأخذ فى حسابنا ان لها آثاراً عظيمة على قطاعات عريضة من المثقفين في العالم الإسلامى وفى العالم الغربى على السواء. ولهذا لابد من التوفر على دراسة الاستشراق دراسة عميقة. وليس يكفى أن نقول إن ما يكتبونه كلام فارغ. فهذا الكلام الفارغ مكتوب بشتى اللغات الحية ومنتشر انتشارا واسعا على مستوى عالمى. ومواجهته لابد أن تكون على نفس المستوى العالمى. وبالكلام المليان على حد تعبير الدكتور حسين مؤنس .

٢ – بدلا من أن نظل نقتات فكريا من دائرة المعارف الإسلامية التى قام باعدادها المستشرقون قبل الحرب العالمية الثانية والتى تجاوزوها وشرعوا منذ عام ١٩٥٤ فى إصدار دائرة معارف إسلامية جديدة – علينا أن نقوم نحن المسلمين باصدار دائرة معارف إسلامية باللغة العربية واللغات الأوروبية الرئيسية تقف على الأقل فى مستوى دائرة المعارف الإسلامية للمستشرقين تخطيطا وتنظيما وتتفوق عليها علميا، وتنقل وجهة النظر الإسلامية فى شتى فروع الدراسات الإسلامية والعربية إلى المسلمين وغير المسلمين على السواء.

فكل فراغ فكرى لدينا لا نشغله بأفكار من عندنا يكون عرضة للإستجابة لأفكار منافية وربما معادية لأفكارنا، فلا نلومن عندئذ إلا أنفسنا.

٣ – علينا أن نوحد جهودنا فى العالم الإسلامى لإقامة مؤسسة إسلامية علمية عالمية لاتنتمى بالولاء إلى بلد إسلامى معين ولا لمذهب سياسى أو فكرى أو دينى معين، بل يكون ولاؤها الأول والأخير لله وحده ولرسوله ﷺ وتستطيع استقطاب الكفاءات العلمية الإسلامية فى شتى أنحاء العالم، وتقف على قدم المساواة مع الحركة الاستشراقية ويكون لها دوريات ومجلات علمية ذات مستوى رفيع تنشر بحوثها بلغات مختلفة، وتعمل على استعادة أصالتنا الفكرية واستقلالنا فى ميدان الأفكار، فهذا هو الطريق الصحيح إلى الاستقلال الاقتصادى والسياسى، إذ أن المجتمع الذى لا يصنع أفكاره الرئيسية لايمكنه على أية حال أن يصنع المنتجات الضرورية لاستهلاكه ولا المنتجات الضرورية لتصنيعه .

والأمر الذى يؤسف له حقا هو أننا على امتداد العالم الإسلامى بسكانه الذين تجاوزوا الألف مليون وبكل مالنا من إمكانات هائلة لا نملك مؤسسة علمية دولية لها نفس الإمكانات العلمية والمادية التى تملكها المؤسسة الاستشراقية. أليس هذا من الأمور التى تدعو إلى الأسى والحسرة ؟

٤ – لابد أن تكون لنا مؤسسة تبشيرية عالمية، وأعنى بذلك جهازا للدعوة الإسلامية فى الخارج يدعو للإسلام من ناحية ويرعى المسلمين الجدد من ناحية ثانية ويحمى المسلمين بالوراثة من ناحية ثالثة. ولابد من إصدار كتب إسلامية باللغات العالمية الحية تصحح التصورات الخاطئة عن الإسلام فى الأذهان وتعرض الإسلام بأسلوب علمى يتناسب مع العقلية المعاصرة، وتقدم الحلول الإسلامية لمشكلات المسلمين العصرية .

٥ – لابد من إعداد ترجمة مقبولة لمعانى القرآن باللغات الحية نسد بها الطريق على عشرات الترجمات المنتشرة الآن بشتى اللغات والتى قام بإعدادها المستشرقون وصدروها فى غالب الأحيان بمقدمات مملوءة بالطعن على الإسلام . ولابد أيضا من اختيار مجموعة كافية ومناسبة من الأحاديث النبوية الصحيحة وترجمتها أيضا لتكون مع ترجمة معانى القرآن فى متناول المسلمين غير الناطقين بالعربية وفى متناول غير المسلمين الذين يريدون فهم الإسلام من منابعه الأصلية .

٦ – العمل على تنقية التراث الإسلامى حتى يكون غذاء فكريا صالحا للمسلم. فتراثنا فيه الغث وفيه السمين . ومع أن الإسلام لا يتحمل وزر الخرافات والأوهام والاسرائيليات التى تشتمل عليها بعض كتب التراث لدينا، فإن المستشرقين يستخدمون هذا التراث بكل مافيه. ويكفى أن نشير فى هذا الصدد إلى مثال واحد وهو قصة الغرانيق المذكورة فى كتبنا والتى ركز عليها المستشرقون، فإذا اتهمناهم بالتجنى حق لهم أن يردوا الاتهام ويقولوا : نحن لم نخترع شيئا من عندياتنا. أليست القصة واردة فى مصادركم المعتمدة ؟

٧ – محاولة اقتحام مجالات تدريس العلوم العربية والإسلامية فى الخارج عن طريق الاتفاقات الثقافية التى تعقد بين بلدان العالم الإسلامى ودول أوروبا وأمريكا، وذلك بإرسال أساتذة أكفاء من الأقطار الإسلامية إلى معاقل الاستشراق للتدريس فيها.. وبذلك يمكن بالتدريج تصحيح التصورات الأوروبية عن الإسلام بالعمل العلمى الدؤب وليس عن طريق الشعارات فقط.. وأعتقد أن هناك الآن جامعات فى أوروبا لديها الاستعداد للاستجابة لذلك .

خاتمـــــة :

وبعد هذا العرض الموجز لقضية الاستشراق وما ينبغى على المسلمين بصفة عامة أن يقوموا بها إزاء هذه المشكلة يبقى هناك سؤال حول الدور المحدد الذى يمكن أن يقوم به الإعلام الإسلامى فى هذا الصدد ؟

لقد سبق أن أشرنا فى بداية هذا البحث إلى أن الإعلام الإسلامى مطالب بإلقاء الضوء على المشكلات والتحديات التى تواجه الأمة الإسلامية بهدف توعية الأذهان وتثقيف العقول وتحصين الشباب بالأفكار الإيجابية البناءة حتى لا يكون عرضة للوقوع فريسة للأفكار الهدامة. وهذا الدور ينطبق بصفة عامة على كل المشكلات والقضايا التى تواجه الأمة الإسلامية. وأما ما يمكن أن يقوم به الإعلام الإسلامى بصفة خاصة فى موضوع الاستشراق فهذا أمر يتطلب معالجة خاصة. فكل مشكلة لها طبيعة خاصة ولها أبعاد تميزها عن غيرها من المشكلات الأخرى. والعلاج ينبغى أن يأخذ ذلك كله فى الاعتبار حتى يمكن أن يكون علاجا ناجعا. وفيما يلى بعض الملاحظات التى يمكن أن تكون مفيدة فى إلقاء الضوء على دور الإعلام الإسلامى فى قضية الاستشراق :

(١) لا جدال فى أن هناك فراغا فكريا لدى الشباب فى عالمنا الإسلامى. وهذا الفراغ فى حاجة إلى أفكار تملؤه – فإذا لم نسارع بملء هذا الفراغ بالافكار الإيجابية الإسلامية فإن الشباب سيكون عرضة لتقبل ما يرد إليه من أفكار مختلفة استشراقية وغير استشراقية يروجها فى الساحة الإسلامية بعض أبناء المسلمين المتحمسين للاستشراق وأمثالهم من دعاة العلمانية .

والإعلام الإسلامى مطالب – بالاشتراك مع الجهات العلمية الإسلامية المعنية – بوضع خطة مزدوجة للمواجهة الفكرية تسير فى اتجاهين متوازيين، أحدهما : توضيح المفاهيم الإسلامية والكشف عن الأخطاء الشائعة، وثانيهما : مناقشة الأفكار الاستشراقية وإبراز الرد العلمى عليها .

ولا يجوز هنا أن يقال إن هذه المهمة خارجة عن نطاق الإعلام الإسلامى أو تتجاوز دوره لأنها مهمة علمية بالدرجة الأولى تقوم بها الجامعات ومراكز البحث العلمى، وذلك لأن انتشار الأفكار الاستشراقية أصبح أمرا شائعا فى العالم الإسلامى بين المثقفين وأنصاف المثقفين .

والأمر يقتضى حملة إعلامية مخططة للكشف عن الحقائق وتعرية التزييف الذى تتعرض له الثقافة الإسلامية. وهنا ملاحظة جانبية نود أن نشير إليها فى هذا الصدد وهى أنه ينبغى على الإعلام الإسلامى أن يركز على الأولويات ويبتعد عن الأمور الهامشية التى تغرق الناس فى النزاعات والاختلافات حولها بلا طائل، كما ينبغى أن يبتعد أيضا عن أسلوب الإثارة الصحفية التى تضر ولا تنفع .

(٢) الإعلام الإسلامى مطالب بتعريف الشباب بالمفكرين المسلمين الأصلاء وبالمؤلفات الإسلامية الرصينة التى تحمل أفكارا مضيئة فالشباب فى أشد الحاجة إلى نماذج فكرية رائدة يقتدى بها ويستفيد مما خلفه هؤلاء المفكرون فى السابق واللاحق من آثار علمية مفيدة تغذى عقولهم وتثقف أذهانهم، وترتقى بمستواهم الفكرى . وبذلك يستعيد الشباب الثقة فى العقلية الإسلامية ويتغلب على عوامل اليأس والإحباط التى تحيط به من كل جانب فينطلق بكل قدراته وطاقاته لبناء أمته والأرتقاء بها بين الأمم .

(٣) قضية الاستشراق لها بعد آخر على مستوى الأقليات الإسلامية فى الغرب ، وعلى مستوى المثقفين وغير المثقفين من غير المسلمين فى الغرب أيضا، ولا يجوز أن يغفل الإعلام الإسلامى هذا البعد لما له من تأثيرات عميقة فى تفكير الناس فى الغرب وفى تفكير أبناء الأقليات الإسلامية هناك . فهذه الأجيال من أبناء المسلمين فى الغرب تكاد صلتها بلغاتها وثقافتها الإسلامية أن تكون قد تلاشت أو فى طريقها إلى التلاشى، وأصبحت تستقى فى الأعم الأغلب معلوماتها عن الإسلام من مؤلفات المستشرقين المتوفرة فى كل مكان فى الغرب .

ومن هنا فإن الإعلام الإسلامى لابد أن يكون له دور فى هذا الصدد يتمثل فى مخاطبة هذه الفئات بلغاتها الأصلية وبلغات الغرب أيضا وبشتى الأساليب الإعلامية لتوضيح الحقائق والرد

على الشبهات، ومواجهة ما يقوم به الإعلام الغربى الآن من حملات مكثفة لتشويه الإسلام مستندا فى ذلك على بعض ما أشاعه المستشرقون منذ القرون الوسطى من آراء ظالمة حول الإسلام والقضايا الإسلامية .

والله من وراء القصد وهو ولى التوفيق